الأميرُ، ثائرًا

اتجهَ الرامي حسن ليتفقدَ زميلهُ وليُخْرِجا جسدَ ليون مِن العربةِ، ولكن في منتصفِ الطريقِ بدأت خطواتهُ تثقلُ، وامتلأ قلبهُ بإحساسٍ لمْ يعهدهُ مِن قبل.

- «هل هذا صوتُ بدر؟ صوتهُ يتألمُ؟ لا، الصوتُ خافتٌ... كأنما آلةٌ صغيرةٌ تصدرُ صوتًا ما...».

وبعدَ الخطوةِ التاليةِ، ارتفعَ الغطاءُ الذي حجبَ الرؤيةَ عن مَن كان بداخلِ العربةِ قليلًا، وظهرَ رأسُ بدر، فاطمأنَّ حسن قليلًا، وأسرعَ الخطوَ للحظةٍ قبلَ أن يرى بدر يسقطُ إلى الأرضِ كأنما ليس بهِ حياة.

- «ما هذا؟!».

صاحَ حسن، وطارت بكلِّ أرجاءِ المكانِ كراتٌ سوداء صغيرةٌ، كما حدثَ بالضبطِ في إعدامِ ليون، كأنما هذه الكراتُ دائمًا أعلنت عودة ليون مِن الموتِ.

صاحَ قاسم: «ليسَ هذه المرةَ!»، ثم التفتَ إلى أحدِ مساعديهِ، وصاحَ: «أعطِ الإشارةَ للرماةِ!».

لقد تجهَّزَ قاسم للأسوءِ، بعكسِ رجالهِ المهملين؛ فجعلَ مِن عدةِ رماةٍ الكارتَ الخاصَ الذي يؤمِّنهُ مِن أيِّ مفاجآتٍ.

رفعَ أحدُ الجنودِ علمًا بالسماءِ، حتى يتجهزَ الرماةُ ويبدأوا الإطلاقَ، فأتت السهامُ سريعةً مِن جهةِ الغربِ، ولكن المفاجئ أن هذه السهامَ اصطادت الجنودَ بدلًا مِن العدوِّ. انطلقت تلك السهامُ بسرعةٍ

لا تُضاهى، واستقرَّت في رقابِ الجنودِ بين ذقونهم ودروعهم الحديديةِ، وحتى قاسم تقهقرَ أمامها.

ومِن السحابةِ الدخانيةِ بدأ شيءٌ ما يتحركُ...

- «أُقسمُ أن جثةَ الأميرِ وحدها كانت بالعربةِ!».

صاحَ حسن في فزع، ولكنهُ أخطأ؛ لمْ يكنْ ليون وحيدًا، فهو نفسهُ رأى غير ليون...

مِن سحابةِ الدخانِ التي غطت محمد والعربةَ، اندفعت أشباحٌ غريبةٌ إلى الأمامِ لتظهرَ أمامَ الجنودِ دمى خشبيةً تلبسُ ملابسَ البشرِ وتحملُ أسلحتهم. كانت هناكَ ثلاث دمى، الأولى حملت سيفًا كالسيفِ اليابانيّ ذي النصلِ الرفيعِ، الثانيةُ حملت سيفًا شبيهًا بالسيفِ المملوكيّ، والأخيرةُ حملت خنجرين. ولكن كيف تحركت الدمى؟ لمْ يعلمْ أحدٌ إلى أن سَدَّدت أُولاها ضربةً قويةً صدَّها قاسم بسيفهِ العريضِ، ودفعها إلى الوراءِ، حينها ظهرَ للجميعِ: لقد كانت الدمى متصلةً بخيوطٍ رفيعةٍ تلمعُ باللونِ الأخضرِ -لونَ الجيماتَيْتِ-.

بدأت تلك الدمى تقاتلُ الجنودَ، خاصةً قاسم، الذي ظلَّ مشغولًا بقتالِ هذا العدوِّ الذي لا يموتُ. وفي الوقتِ نفسهِ، استمرت السهامُ في القدومِ، واستمرَّ الجنودُ في محاولاتهم للعثورِ على الرامي.

- «لن يعثروا على السيدةِ نورة، أنا متأكدٌ...حسنًا، حان دوري لأقفَ بجانبِ السيدةِ ليَا».

فكَّرَ محمد وهو يُخرجُ سيفًا كان مثبتًا أسفلَ العربةِ، ثم عند مقدمةِ العربةِ، وجدَ ليون، فقالَ: «سيدي ليون، اعتمادي كلُّهُ عليكَ».

أومأ ليون، وفصـــلَ أحدَ الحصـــانين عن العربةِ، وقالَ: «وأنتَ أيضًا، لا تَمُتْ».

ركبَ ليون الحصـــانَ، وانطلقَ مع زوالِ آخرِ آثارِ الدخانِ، كأنهُ آخرُ مَن عـادَ إلى الحيـاةِ مِن الموتِ، ومرَّ وســطَ بعضِ الجنودِ الـذين ارتعبوا فقط لرؤيتهِ، ثم توقفَ لحظةً عند جسـدِ خالد -صـديقِ محمد- الملقى على الأرضِ.

- «لا تقلق؛ جئتُ لأنقذكَ».

همسَ ليون، وهو يفكُّ قيدَ خالد، ثم ركبَ الاثنان الحصانَ.

- «والله لن أسمحَ لكَ!».

رفعَ قاسـم سـيفهُ العريضَ ونزلَ بهِ على إحدى الدمى فتهشـمت تمامًا، وبذلكَ وجدَ فرصـةً لينسـحبَ، فتركَ أرضَ المعركةِ، آخذًا بلجامِ أحدِ أحصنةِ الجنودِ، وملاحقًا لليون.

- «كيفَ أوهمنا أنهُ ميّتٌ؟ كان يفترضُ أن ينتهي كلُّ شـيءٍ هنا... كيف خدعهم؟».

أخذ قاسم يفكّرُ بينما بدأ فرسهُ يُسرعُ إلى الأمامِ، متجاوزًا أرضَ النزاعِ والمعسـكرَ بأسـرهِ، إلى حيثُ ارتفعت أشـجارُ الغابةِ، إلى حيثُ فرَّ ليون وخالد.

وصـلت العربةُ التي حملت سـامح ودنيا وسـلمى الصـغيرةَ إلى التقاطعِ الرئيسـيِّ بالقريةِ. كان الطريقُ يتفرَّعُ إلى ثلاث طرقٍ: الأولُ يقودُ

إلى البابِ الجنوبيّ للقريةِ، الثاني إلى الشـــرقيّ، والأخيرُ -مقصـــدهم- إلى الشماليّ. ولمْ تكنْ غير تلك الطرقِ الثلاثةِ تسمحُ بمرورِ العرباتِ.

ســـارت العربةُ بهم وســـطَ هدوءٍ طويلٍ، إلى أن لمحَ أحدهم نُذُرَ شؤم.

- «ما هذا؟».

نظرَ سامح إلى اتجاهِ البوابةِ الشرقيةِ وأوقفَ العربةَ.

أجابت دنيا: «عمودُ دخان بالسماءِ... حريقٌ؟».

- «ويمكنُ أن يكونَ ليون ومَن معهُ قد وقعوا في مشكلةٍ كبيرةٍ...».

- «ألمْ تخبرني منذ لحظةٍ أنكَ تضعُ ثقةً عمياءَ في ليون؟».

نظرت دنيا متهمةً الرجلَ، ثم رفعت نظرتها إلى الســـماءِ ثانيةً: حقًا، كان الدخانُ مقلقًا، ولكنهُ لمْ يبدُ آتيًا مِن بعيدٍ جدًا.

سألَ سامح: «إذن، أنمضي؟».

- «أجل! ما مِن مشـــكلةٍ! ما مِن مشـــكلةٍ! علينا أن نقومَ بدورنا أولًا، كما أنه ليس بوسعنا الكثير».

لمْ تتحرك العربةُ لدقيقةٍ، ولما أوشكت على التحرُّكِ، جاءَ صوتُ أجراسٍ عاليةٍ، وتبعهُ صـــوتُ صـــراخ مِن بعيدٍ، وبمرورِ لحظةٍ أخرى، ظهرت أشباحُ أشخاصٍ يركضون مِن بعيد، أطفالًا ورجالًا ونساءً.

أوقفَ سامح رجلًا.

- «ما الأمرُ؟».

نظرَ الرجلُ إلى أعلى بعدَ أن كان نظرهُ مصـوَّبًا فقط إلى الأرضِ - حيث احتاجَ أن يأخذ الخطوةَ التالية ليركضَ-، ثم قالَ بهرع: «الجنودُ! لقد جنُّوا! البوابةُ أغلقوها، وبدأوا في إشـعالِ النيرانِ بالقرية! مَن يقفُ أمامهم يقتلونهُ!».

لمْ ينتظر الرجلُ سؤالَ سامح التالي وركضَ بعيدًا.

سألت دنيا: «هل يعني هذا أن قاسم اكتشفَ أمرنا؟».

- «ليس بالضرورةِ...».

في عقلهِ دارت أفكارٌ كثيرةٌ، ولكن في النهايةِ لمْ يؤمنْ سـامح إلا بواحدةٍ:

- «يحاولُ قاسـم إزالةَ آثارِ إخفاقهِ... وإزالةَ آثارِ أيّ خطرٍ محتملٍ... يريدُ إزالةَ القريةِ كأنما لمْ توجدْ. لا! إنهُ يريدُ شـيئًا آخرَ، كيف أهملتُ هذا؟! يريدُ جريمةً ليبررَ قتلهُ لليون وإراقةَ أيّ دماءٍ؛ فلا عقابَ سـيحلُّ بهِ إن اتهمَ ليون بالتحالفِ مع بعضِ أفرادِ المقاومةِ مِن ألسـندا وإحراقِ القريةِ... لن يحلَّ عقابٌ على الإطلاقِ، بل يمكنُ في هذه الحالةِ أن يُغفرَ لهُ قتلُ ليون كورقةِ مساومةٍ!».

قالَ سـامح: «اسـتعدِّي يا دنيا؛ لن يكونَ خروجنا من القريةِ سهلًا».

ظهرت أعمدةُ دخان مِن جهةِ الشـمالِ والجنوبِ، وازدادَ عددُ الهاربين، حتى ارتفعَ صوتٌ واضحٌ لهم، يحذِّرهم ويناديهم:

- «إلى بيوتِ الله! لن يقتلوكم ببيوتِ العبادةِ! إنهما ملجأنا!».

- «لقد جاءَ آخرُ السهامِ مِن هذه الأنحاءِ».

قالَ أحدُ الجنودِ هذه الكلماتِ عقبَ وصولِهِ إلى جزءٍ مِن الغابةِ شرقَ القريةِ، كان هذا الجزءُ مصدرَ السهامِ التي قبضت أرواحَ عدة جنودٍ، ولكن في هذه اللحظةِ توقَّف وابلُ السهامِ، وحلَّ هدوءٌ غير طبيعيٍّ.

- «ولكن أليست هذه المنطقةُ بعيدةً قليلًا عن المخيَّمِ؟».

- «أجل، كما أن الأشجارَ كثيفةٌ، فلا أظنُّ راميًا قادرًا على الإصابةِ مِن مِثلِ هذا المكا—».

سقطَ آخرُ مَن تحدَّثَ بسهمٍ اخترقَ جبينهُ.

- «مِن هناك!».

أسرعَ الجنودُ إلى مجموعةِ شجيراتٍ ظنوا أن السهمَ خرجَ منها، ولكن ثانيهم سقطَ بسهمٍ آخرَ مِن البقعةِ نفسها، وظلَّ الثالثُ الأخيرُ يركضُ ناحيةَ الشجيراتِ وهو يصيحُ، رافعًا سيفهُ، وجاهزًا لينزلَ بهِ على العدوِّ.

نزلَ السيفُ، ولمْ يقطعْ إلا الأغصانَ، وأحسَّ الجنديُّ بوجودِ كائنٍ ما خلفهُ بالضبطِ، ولكن قبلَ أن يلتفتَ، كان خنجرٌ قد أسكتهُ وأسكتَ سيفهُ إلى الأبدِ.

أعادت نورة الخنجرَ إلى غمدهِ الصغيرِ عند خصرها، واستعادت قوسها مِن بين الشجيراتِ، ثم حدَّثت نفسها: «سقطَ آخِرهم، والباقي لكِ يا لِيَا».

كان حســن وجنديٌّ آخَرُ آخِرَ الباقين مِن ضــمنِ الجنودِ الذين وقفوا لقتالِ دُمَى لِيَا بالمعســكرِ، وحولهم كانت آثارُ إراقةِ الدماءِ مخيفةً مقززةً، وأمامهم وقفت دميتان بلا حياةٍ، ووراء الدميتين لِيَا.

موَّجت الرياحُ شــعرَ لِيَا الأزرق الطويلَ الذي لمْ يعدْ مصـفـفًا في ضــفيرةٍ واحدةٍ، وتحركت الخيوطُ التي امتدَّت مِن الدميتين إلى بكراتٍ مثبَّتةٍ بمعصمي لِيَا.

تحدَّثت لِيَا ببرودها المعتادِ المصـحوبِ بنغمٍ حزينٍ: «إن بدأتما بالركضِ الآن فلن أسْلبكما حياتكما».

- «هاه! الموتُ أهونُ! ولكني لن أموتَ! ســأنتقمُ لكلِّ مَن ســقطَ! والآن!».

أمامَ صياحِ حسن، لم تستطعْ ليا إلا أن تتنهدَ.

أخذَ حسن يفكِّرُ:

- «لديَّ فرصةٌ، فرصةٌ لأعودَ منتصرًا إلى السيدِ قاسم، وحينها لن يوجدَ حائلٌ بيني وبين الهروبِ مِن هذا الجحيمِ... آســف يا بدر، واللهِ لمْ أخططْ أن أصحبَ غيركَ إلى المجدِ، ولكن بموتكَ...».

صاحَ حسن: «المجدُ لي وحدي!».

صــاحَ بأعلى صــوتهِ، ولكن ســيفهُ ســقطَ إلى الأرضِ، وتبعهُ إلى ركبتيهِ، ثم على وجههِ؛ لقد تحركت الدمية بســرعةٍ فائقةٍ وســددت ضربتها قبل أن يأخذ حسن خطوتين.

في آخرِ لحظاتهِ بهذا العالمِ الفاني، بعدَ أن طعنَ ســيفٌ قلبهُ، أحسَّ حسن بالدم يسيلُ، وتساءَلَ:

- «لماذا يا تُرى؟ لمْ يرُدْ أيٌّ منَّا هذه النتيجةَ... لا بدر، لا أنا...».

رمى آخِرُ جنديٍّ سيفهُ، وسقطَ إلى الأرضِ بجانبِ حسن يطلبُ الرحمةَ، ساجدًا أمامَ الدميتين.

أمسكَ حسن بيدِ الجنديِّ وقال: «مَن فعلَ هذا بنا... لدي عائلةٌ... يجبُ أن أعودَ لها».

حتى عند موتهِ، رفضَ حسن أن يرى الإجابةَ، وفي النهايةِ سقطَ وتساؤلاتهُ غير مجابةٍ.

- «اغربْ عن وجهي».

قالت لِيَا الكلمات بهدوءٍ، فقامَ الجنديُّ المتبقي، والتفَّ سريعًا، ثم ركضَ بلا هدفٍ، بلا بصرٍ، إلى حيث حملتهُ رِجلاهُ.

دون أن تكشِفَ نفسها، راقبت دنيا الجنودَ المتمركزين بالقربِ مِن البوابةِ الشمالية، ثم بخطواتٍ سريعةٍ وخفيفةٍ، عادت إلى حيث انتظرَ سامح.

- «كم عددهم؟».

-«خمسة».

- «ولكن ألا يعني ذلك أن معظم جنودِ قاسم بالقريةِ؟».

- «على ما يبدو».

بإجابةِ دنيا الأخيرةِ، سادَ الصمتُ لحظةً، وفكَّرَ الاثنان فيما يمكنُ فعلهُ. لقد توقفت العربةُ وأُخفيت عن الأنظارِ بين بيتين ليسا

بعيدين عن البوابةِ، حتى صـــارت أصـــواتُ النيرانِ التي التهمت البيوتَ الأقربَ مسموعةً. وكما حزَّرَ سامح، كان هناك خمسة جنود عند البوابةِ الشماليةِ، وخمسة آخرون عند البوابة الجنوبيةِ، واثنان عند الشرقيةِ؛ فكونوا نسبةً كبيرةً قاربت مِن نصفِ عدد جنودِ قاسم.

قالَ ســـامح: «آملُ أن بذلك تكونُ مهمةُ ليون والآخرين أســـهلَ... الآن، ماذا سنفعلُ؟».

- «أرى أن تهتمَّ فقط بالقيادةِ وتتركَ الباقي لي».

- «ولكن يا دنيا...».

- «لا لكن! لقد احتفظتُ بســـلاحي لهذه اللحظةِ، للحظةٍ يظهرُ فيها الأروعَ!».

غمزت دنيا عن ثقةٍ، وتركت ســـامح وســـلمى بالعربةِ لينتظرا رجوعها؛ لقد تقدمت لقتالِ الجنودِ وحدها.

انطلقَ حصـــانُ ليون يضـــربُ الأرضَ بحوافرهِ، ويقفزُ فوقَ الشجيراتِ، وعلى ظهرهِ تمسَّكَ خالد بليون.

- «ما زالَ وراءنا!».

نبَّهَ خالد ليون إلى الحقيقةِ الواضحةِ، فالتفتَّ ليون ولمحَ قاسم، ثم ظلَّ صامتًا لا يُبدِ ردًّا، منتظرًا ظهورَ نهايةِ الغابةِ.

- «إلى أين نتجهُ؟».

أجابَ ليون: «سترى في لحظةٍ».

في مرمى البصرِ، كما توقَّعَ ليون، اختفت أشجارُ الغابةِ، وبعد لحظةٍ أخرى وصلَ الحصانُ بهما إلى سهلٍ واسع امتدَّ مِن شمالِ الغابةِ إلى الأفقِ. ورغم أن قريةَ مشَّى كانت تقعُ عندَ ملتقى تلكَ الغابةِ مع السهلِ، لمْ يسمح توزيعُ الأشجارِ بأن يرى الاثنان غير أعمدةِ الدخان مِن بعيد.

- «ما الذي يحدثُ...؟ لا! هل بدأوا؟!».

صاح خالد بينما انطلقَ الحصانُ حرًّا في السهلِ الواسعِ، لا يعترضُ طريقهُ إلا صخورٌ حمراءُ ظهرت كل حين وحين.

وراءَ الاثنان قفزَ حصانُ قاسم خارجَ الغابةِ، وأخذَ يسرعُ مِن جديد.

- «قد نستطيعُ الهربَ الآن؛ الفارقُ اتَّسعَ!».

امتلأ قلبُ خالد بالأملِ، غير أن ليون أوقفَ الحصانَ.

- «ما الأمرُ؟».

أجابَ ليون: «ابقَ مع الحصانِ هنا».

دون زيادةِ كلمةٍ، خطا ليون بثقةٍ تجاهَ حصانِ قاسم المتقدِّمِ. وبينما الرياحُ تحرِّكُ شعرهُ ليتمايلَ تحتَ سماءِ الغروبِ القرمزيةِ، رفعَ ليون سيفهُ عاليًا أمامهُ، حتى صارَ مرئيًّا لقاسم. وتدريجيًّا، توقَّفَ حصانُ قاسم، ونزلَ الأخيرُ مِن عليهِ، رافعًا سيفهُ هو الآخرُ ومبتسمًا بثغرٍ واسع، حتى ازدادت ابتسامتهُ مِن بروزِ أنفهِ المدببِ.

تحدَّثَ قاسم: «لا أصدِّقُ كم تفاجئني أيها الأمير! ولكن، هذه نهايةُ مَسْعاكَ».

- «بل البدايةُ، أيها القاتل».

- «قاتل؟ وماذا تدعو نفسكَ ومَن معكَ؟ الملائكة؟ في الحربِ لا قاتل ولا مقتول، ولا سائل ولا مُساءَل!».

- «لأجلِ ألسندا وعزةِ جيشها وشعبها».

- «لأجلِ ديمنتيا وغزةِ جيشها وشعبها».

رَفْعُ السيفِ كان مِن التقاليدِ القليلةِ المتبعةِ في ألسندا وكذلكَ ديمنتيا، وكان يدلُّ على تحدِّي الفاعلِ أحدَهم إلى نزالٍ، رجلًا لرجلٍ، بلا سلاح غير السيفِ المرفوعِ، فإن قبلَ المتحدَّى، رفعَ سيفهُ هو الآخر.

رفعَ قاسم الجرَّاح سيفهُ العريضَ، صاحبَ نصلٍ في عرضِ الكفِّ، مزيَّنًا بعروقٍ خضراء امتدت عليهِ كما تمتدُّ العروقُ في ذراعِ الإنسانِ. ولمعت تلكَ العروقُ باللون الأخضرِ للجيماتَيْتِ، منذرةً أن سلاحَ قاسم لمْ يكنْ عاديًّا...

أنذرَ السيفُ، ولكن حتى بدونهِ، ظلَّ قاسم عدوًّا مرعبًا؛ فلقد كان هو الذي أسقطَ سهمَ نورة، الذي سُدِّدَ إليهِ في حصنِ ندفة الثلجِ، بضربةٍ واحدةٍ مِن هذا السيفِ... اصطادَ السهمَ وهو في الهواءِ... ومِثلُ هذا الفعلِ لمْ يكنْ عاديًّا على الإطلاقِ.

هبَّت الرياحُ، اقتربت شمسُ المغيبِ أكثرَ مِن الأفقِ، وسكنَ الكونُ.

وقفَ ليون وقاسم الجرَّاح وجهًا لوجهٍ.